التنظيم الاجتماعي

1 – القبيلة

1 القبيلة: وهي مجموعة الأسر المتحدة بوشائج القرابة، وهي أيضا كيان اجتماعي يقوم على القرابة والمصاهرة. ويمكن لهذا الكيان أن يأخذ طابعا اقتصاديا يكفل أفراده المشاركة في مختلف النشاطات الاقتصادية. فهي إذا أول صورة للنظام الاجتماعي الدائم الذي عرفته مختلف الشعوب القديمة بما فيها شعوب بالد المغرب القديم .

إن دخول منطقة الشمال الإفريقي الفترة الشبيهة بالكتابية) فترة فجر التاريخ (كان مواكبا للتطور الاجتماعي، حيث عرفت تلك الجماعات البشرية تطور ملحوظا من حيث العدد والروابط والنظم التي تجمع بينهم. مما أدى إلى ظهور أول شكل من تلك التنظيمات بالمنطقة والمتمثل في القبيلة.

وقد استمر هذا النظام فترات طويلة من الزمن حيث نجد في النصوص القديمة الإغريقية واللاتينية إشارات إلى عدد من المجموعات القبلية وذلك بداية من القرن(5ق.م)، إذ يعتبر **كتاب التواريخ** للمؤرخ **هيرودوت** أول مصدر كتابي تحدث عن اللوبيين كوحدة عرقية بالرغم من تعدد عناصرها القبلية بخصوصياتهم المتمثلة في اختلاف طرق المعيشة والعادات والتقاليد. حيث خص بالذكر قبائل القسم الشرقي من ليبيا وهي كالآتي:

1 - الناسمون: هم من أكثر القبائل الليبية عددا، وجرت عاداتهم على ترك ماشيتهم في الصيف ترعى عند الساحل بينما هم يمضون إلى واحة أوجلة للعمل في جني التمور. ومن عاداتهم أن يقيم الرجل عند زواجه حفلا يتعاقب فيه ضيوفه على عروسه ويقدمون لها الهدايا قبل أن يدخل هو بها.

2 – الجيليجام: تزين نساء هذه القبيلة كواحلهن بعقد من الجلد، حيث تصنع كل واحدة منهن حلقة من الجلد عن كل رجل اتصلت به وتشتهر تلك التي تضع أكبر عدد من الحلقات بأنها خير نساء القبيلة ألنه أحبها أكبر عدد من الرجال وكلتا القبيلتين حسب هيرودوت تقطنان شرق بحيرة تريتون، وهي من قبائل البدو الرحل الذين يتغذون على لحوم الحيوانات والأعشاب. أما غرب هذه البحيرة فيقطن الصنف الثاني من القبائل الليبية المستقرة ونذكر منها :

3 - الماكسيز : هي من القبائل التي تسكن البيوت العادية و يمارس أبناؤها الزراعة. يطلقون شعورهم على الجانب الأيمن من الرأس ويحلقون الطرف الأيسر، ولهم صبغ أجسامهم ويزعمون أنهم من نسل رجال جاؤوا من طروادة

.

4 - الزاويس: هم الذين تقود نساؤهم العربات إلى الحرب وبعدهم تأتي قبائل الجيزانت وبلادهم غنية بالعسل وغيرها من القبائل المستقرة التي تختلف ليس عن الأولى في نمط معيشتها باتخاذها للبيوت مساكن تأوي إليها، واعتمادها على نفسها في إنتاج ما تستعمل من طعام عن طريق الزراعة فحسب بل في عاداتها وتقاليدها التي تبدوا أكثر تحضرا من الأولى .

وبناء على ذلك يمكننا اعتبارها نواة لظهور الشكل الأول من أشكال التجمع السكاني في صورته المتطورة إذا مقارناه بالصورة البدائية السالفة الذكر. ألا وهو نموذج الحياة القروية البسيطة.

والملاحظ من استنتاجات الأثريين أن السكان منذ القدم كانوا يختارون أماكن تمركزهم القروي في مواقع جد إستراتيجية تتوفر على جميع الظروف الملائمة للعيش الكريم. وهي الحصانة الطبيعية للموقع أي في المكان الذي يساعدهم على حماية ممتلكاتهم في حال تعرضهم للخطر وكذا وفرة الماء أي بجوار الينابيع حتى يكون تزودهم بالماء أمرا يسيرا. وهي الشروط الأساسية في تخطيط القرى والمدن حيث يرى المؤرخ

لويس ممفورد أن الحياة المستقرة في القرية تمتاز على مختلف أشكال الحياة في جماعات صغيرة مفككة الروابط بأنها كانت تهيأ أقصى الوسائل الملائمة للتكاثر، التغذية، الوقاية وهو الذي جعل الحياة الحضرية أمرا ميسورا.

وقد ظل الشكل الأول للتنظيمات الاجتماعية ببلاد المغرب القديم أي القبيلة مستمرا فترات طويلة من الزمن عرفت خلالها القبائل المغاربية تطورات كبيرة في مختلف الجوانب الحياتية الاجتماعية الاقتصادية منها والسياسية لتظهر في شكلها الثاني وهو الكنفدراليات (الاتحادات) القبلية ابتداء من نهاية القرن الرابع وبداية القرن الثالث إلى غاية القرن الثاني.

2- الاتحادات القبلية:

لقد وصلت بلاد المغرب القديم إلى هذا الشكل من التنظيم الاجتماعي على امتداد مراحل زمنية طويلة. حيث كان ذلك نتيجة تراكمات اجتماعية في السلم والحرب، علما أن تلك التراكمات من التجارب والوقائع هي التي عززت روح التضامن بين أفراد القبيلة في بادئ الأمر ثم بين القبائل فتكونت الاتحادات القبلية كانتصار إرادة الأغلبية المعبرة عن المصالح المشتركة. وقد عرفت بذلك بلاد المغرب القديم نقلة سياسية هامة مع ظهور هذا الشكل من التحالف، الذي تحولت فيه القبيلة إلى قوة سياسية انبثقت منها الدولة في شكلها الملكي على يد كنفدراليات قبائل كبرى كل واحدة منها في حجم شعب أبرزها **النوميد والمور**. كما تحولت أيضا الزعامات القبلية إلى أسر ملكية هي التي تسلسل منها ملوك الممالك النوميدية و المورية

-2-1 النوميد في الشرق:

لا ندري بالضبط متى انقسم النوميد إلى قسمين ماسيل في الشرق (المملكة النوميدية الشرقية وعاصمتها سيرتا) و ماسيسيل في الغرب (المملكة النوميدية الغربية وعاصمتها سيقا) لكن

ظهورهم في خريطة المغرب السياسية كان على لسان مؤرخي القرن الثاني (2 ق.م) كشعب كبير ذو سيادة على أوسع رقعة ممتدة
من حدود قرطاجة شرقا إلى نهر ملوشة غربا.

هذه القوة السياسية هي المملكة النوميدية الموحدة التي امتدت حدودها الشرقية في عهد ماسينيسا (103–148 ق. م) إلى السرت الكبير ،لكنها سرعان ما أخذت في التراجع بعد وفاة ابنه ميسبسا 118 ق.م في أعقاب الانقسام والصراع على العرش الذي كانت لروما يد فيه حيث عملت على تقليص حدودها و ضم أجزائها الغربية إلى مملكة موريطانيا (موريزيا).ثم إنه ابتداء من سنة 40م كون الرومان من الإقليم الممتد من الوادي الكبير (Ampasaga) شرقا الى واد الملوية غربا ولاية موريطانيا القيصرية و أصبح سكان هذا الإقليم يدعون **بالماوريين** في مصطلح الإدارة الرومانية.

وعن أصول النوميد ومدلول تسميتهم فإن خلو المصادر الإغريقية الباكرة منه قد جعله محل نقاش كبير من المؤرخين من خلال عديد المقاربات اللغوية. وإذا كان **سترابون** قد اعتبره مشتقا من الكلمة الإغريقية نوماداس Nomadasالتي تعني البدو الرحل، لكن السؤال الذي يطرح نفسه هو كيف يعتبر هذا اللفظ مشتق من نوماداس مع أن الذين يطلق عليهم هم مزارعون مستقرون؟

يبدو سترابون لا يفرق بين مدلول عبارة نوماد ونوميد معتقدا أن التسمية نمطية أي أنهم تسموا بذلك لأنهم كانوا بدوا رعاة أرغمتهم الحيوانات الضارية على ترك الفلاحة وامتهان الرعي. باستثناء **بوليب** الذي استعمله للدلالة على كيان سياس ي محدد وعلى شعب معين له خصائصه ونظمه. الظاهر أن بوليب قد استقى هذا المفهوم من الوثائق الرومانية الرسمية التي ظهر فيها مدلول عبارة نوميديا بهذا المعنى ابتداء من القرن الثالث الذي شهد حروبه مضد القرطاجيين.

أما الوثائق الأثرية المتعلقة بأصول هذه التسمية ومدلولها فهي نادرة ومقتضبة، وأقدمها ما جاء في النقوش المزدوجة اللغة (ليبية- بونية أو بونية - التينية) والتي توحي بالأصل المحلي لها. والنقوش اللاتينية غنية بأسماء الأشخاص المنتمين إلى هذا الشعب الذي حافظ أفراده على هويتهم النوميدية ويظهر ذلك في ألقابهم التي احتفظت بها النصوص الأثرية.

كما بقي اسم نوميديا يطلق على قبيلة بناحية تاقاستTagasteسوق أهراس حاليا و على المدينة المركزية لها و هي تيبرسكو النوميدية Tubursicu Numidarum و يذكر جون ماري لاسير حوالي عشرون موقعا أثريا تضمنت نقوشها أسماء نوميدية و هذا ما يوضحه الشكلالموالي:

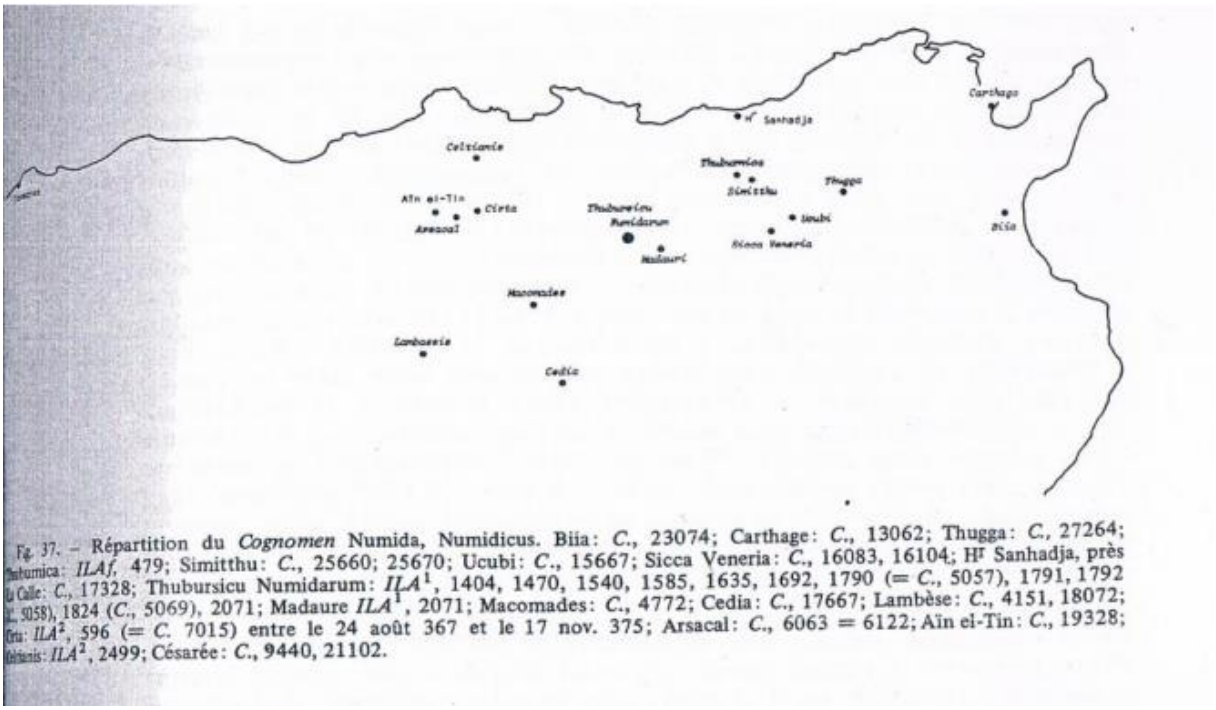

Fig. 37. – Répartition du *Cognomen* Numida, Numidicus. Biia: *C.*, 23074; Carthage: *C.*, 13062; Thugga: *C.*, 27264; Thubunica: *ILAf.* 479; Simitthu: *C.*, 25660; 25670; Ucubi: *C.*, 15667; Sicca Veneria: *C.*, 16083, 16104; Hr Sanhadja, près de Calle: *C.*, 17328; Thubursicu Numidarum: *ILA*[1], 1404, 1470, 1540, 1585, 1635, 1692, 1790 (= *C.*, 5057), 1791, 1792 (= *C.*, 5058), 1824 (*C.*, 5069), 2071; Madaure *ILA*[1], 2071; Macomades: *C.*, 4772; Cedia: *C.*, 17667; Lambèse: *C.*, 4151, 18072; Cirta: *ILA*[2], 596 (= *C.* 7015) entre le 24 août 367 et le 17 nov. 375; Arsacal: *C.*, 6063 = 6122; Aïn el-Tin: *C.*, 19328; Celtianis: *ILA*[2], 2499; Césarée: *C.*, 9440, 21102.

يمثل الشكل (الخريطة) أهم المواقع الأثرية التي تحتوي نقوشها على أسماء نوميدية. وقد قلص الرومان المحتوى السياسي للشعب النوميدي وأزالوا عنه مفهوم الأمة المتميزة، ليحصروا مصطلح النوميد في اسم لقبيلة شهيرة. بينما احتفظوا به كتسمية للإقليم الجغرافي النوميدي الذي كونوا منه والية رومانية متغيرة الحدود هي موريطانيا القيصرية، ليصبح سكان هذا الإقليم يتسمون بالماوريين في مصطلح الإدارة الرومانية.

أما أشهر القبائل المكونة لهذا الاتحاد القبلي هي الماسيل Massyles و الماسيسيلMasaesyles .

-2- 2المورفي الغرب:

يبدو أن الجغرافيين الإغريق القدامى هم أول من استعمل لفظ موريزيا للدلالة على الرقعة الجغرافية الأكثر بعدا بالنسبة لبالدهم من ليبيا أي المنطقة التي تقع في أقصى الغرب و على السكان معا ، فقد استعمله **بوليب** و أعطاه مفهوما سياسيا كذلك بالنسبة لديودور الصقلي الذي أشار الى ملك حكم موريزيا أوائل القرن الرابع قبل الميلاد .

كما تأثر المؤرخون اللاتينيون الأوائل بالتسمية الإغريقية و منهم **تيتيوس ليفيوس** الذي ورد عنده في شكل موريزيMaurusii والذي حرف فيما بعدالموري .Mauri و حسب سترابون فإن عبارة موري كانت مستعملة من طرف الأهالي و الرومان على حد السواء. في حين أرجعها **سالوست** إلى الأصل الميدي بينما ذكر كل من **بطليموس** و **بلينوس** قبيلة تدعى موري وراء نهر الملوية و هي تمثل عصبية الملك الموري، مما دفع ببعض المؤرخين للقول بأنها كنفدرالية قبلية تشكلت انطلاقا منها المملكة المورية.

أما الرأي الذي يحظى بترجيح أكثر من غيره حسب المؤرخ محمد البشير شنيتي فهو رأي بوشار Bouchardعلى الرغم من أن الأخذ به يعني تغيير جوهري في أسماء المواقع التاريخية وبالتالي تغيير الخارطة السياسية للمغرب القديم. والذي انطلق فيه من التقارب اللغوي بين الفينيقية والعربية، ويكون بذلك لفظ مارو تحريف للفظ ماحوريم الذي يعني الغرب،فموريزيا هي ماحوريت أي بلاد الغرب وتقابلها فالإغريقية هيسبيريا Hesperii التي تعني الجهة الغربية من العالم القديم أي منطقة غروب الشمس. وبناء عليه فإن سكان هذه الجهة قد تسموا بالموريزيين أي الموريين نسبة إلى الجهة الفلكية التي يتواجدون بها لا غير.

بينما بالغ آخرون إلى درجةالهذيان حسب المؤرخ محمد العربي عقون مثل رين Rinn الذي حاول ايجاد علاقة بين موري وأورو التي تعني الجبل في اللغة الإغريقية ومقاربته مع اسمي المنطقتين الجبليتين في الأطلس الصحراوي عمورو أو أمورو و أوراس Maures et Amaur .

و هذا ما تؤكده الاختلافات بين كتاب العهد الروماني حول تحديد مواقع و حدود السكان المدعوين بالموريين ،إذأخذت هذه التسمية لديهم معنى عاما وارتبطت بالمفهوم الإداري و السياسي أكثر من ارتباطها بالسكان أنفسهم . ومن ثمة خروج مفهوم هذا اللفظ من مدلوله الجغرافي إلى معناه الإداري المرتبط بالسكان الخاضعين للسلطة الرومانية في ولايتي موريطانيا. ومن أشهر القبائل التي كان لها دور هام في الكفاح ضد الاستعمار الروماني نجد قبائل الباوار والباقواط .إذا كانت الكنفدراليتان السالفتي الذكر (النوميد والمور) قد وصلتا إلى بناء اجتماعي و سياسي تحولت فيه القبيلة إلى قوة اجتماعية في شكل شعب و سياسية في شكل مملكة و اقتصادية بظهور مختلف الصناعات بالمدن و تطور العمران عن طريق تطور القرى إلى مدن و حواضر تغذيها مجموع الأرياف و القرى المحيطة بها. إلا أن بعض الكنفدراليات القبلية بقيت محافظة على تقاليدها القبلية بعدم اندماجها في المجتمعات الحضرية القريبة منها أو المحيطة بها اندماجا كليا ومن أبرزها الجيتول.

-2-3الجيتول :

ظهر اسم الجيتول منذ نهاية القرن الثاني قبل الميلاد للدلالة على مجموعة قبلية كبيرة كثيرة العدد لكنها لا تمثل عرقا متميزا. لأنها قبائل متعددة الأصول جمعها إطار جغرافي متجانس نسبيا يتمثل في السهوب والمرتفعات الجنوبية وحواف الصحراء الشمالية. أي إقليم الانتقال الطبيعي بين التل والصحراء المتميز بالاقتصاد الرعوي عليه اشتهر الجيتول عند المؤرخين القدامى بـأنهم رعاة نموذجيين حيث شبههم **سترابون** بالعرب البدو ووصف خيولهم وأبقارهم بأنها كثيرة العدد. في حين ذكرهم **سالوست** بأنهم قوما محاربين أكثر من الأقوام الليبية الأخرى تقع مواطنهم شمال مواطن الأثيوبيين. بينما تحدث بلين عن بعض قبائل الجيتول بولاية موريطانيا الطنجية بأنهم قوم كثيري الحركة يتحينون الفرص لاجتياح أراضي جيرانهم. أما **تيت ليف** فقد أشار إليهم كجند في جيش هانيبال. ومثله فعل القائد الروماني ماريوس الذي جند عددا كبيرا منهم.

الظاهر أن هذه المقتطفات من المصادر تشترك في تحديد مواطنهم ما بين الأثيوبيين جنوبا والنوميد والجيتول شمالا كما يستنتج أيضا أن البعض منهم كانوا يجمعون بين تربية المواشي والزراعة أي أنصاف البدو ولكن أغلبيتهم كانت من كبار البدو .ثم إن ميلهم الشديد للتنقل للبحث عن المراعي لمواشيهم وكذا حبهم الكبير للحرب ـ فهم شعب محارب بامتياز، هو الذي جعلهم ال يقيمون دولة خاصة بهم،مع أن بعضهم كانوا ينتجعون الأقاليم المجاورة للمملكتين النوميدية و المورية. وهو ما دفع المؤرخين إلى تقسيمهم إلى قسمين الجيتول الشرقيين والغربيين.

وقد ظلت أغلبية هذا الشعب خارج السيطرة الرومانية بل مصدر قلق دائم، خاصة ضد المؤسسات الزراعية التي ألفوا المكوث بها. مثلما حدث مع قبيلة الموزولامي و هي إحدى القبائل الجيتولية النصف بدوية، التي اقترن اسمها بمقاومة القائد تاكفاريناس(17– 23 م) ضد التوسع الروماني بالمنطقة.

وفي الأخير نستنتج ما يلي: إن التطور الذي شهدته مختلف أشكال التنظيمات الاجتماعية بالمغرب القديم يلخص لنا جوانب مختلفة من نمط الحياة الاجتماعية في صورها القبلية فالقروية ثم المدنية الحضارية. علما أن عملية الانتقال من صورة إلى أخرى يتم خلال مرحلة طويلة من التفاعل بين أفراد الجماعات البشرية فيما بينها عن طريق الروابط الأسرية فالقبلية ثم في صورتها الأكثر تطورا الشعب (المجتمع)وكذا تفاعلها مع بيئتها الطبيعية، أما بالنسبة لتوافد العناصر الأجنبية على المنطقة سواء عن طريق الهجرة أو الاستعمار قد ساهم في تطور الحياة الحضرية لدى شعوب المنطقة فاحتكاكهم بالقرطاجيين مثلا قد ساعد على ظهور الشكل الثاني من التنظيمات الاجتماعية ألا و هو تطور الكنفدراليات القبلية على الصعيد السياسي وتكوين الممالك النوميدية و المورية. ففي هذه الفترة بلغ التمدن الليبي درجة كبيرة من التطور حيث ظهرت العديد من المدن ومن بينها المدن العواصم مثل سيرتا ودقة وسيقا، لتصبح المجتمعات النوميدية والمورية تنافس أكثر المجتمعات تحضرا في العالم القديم.

وفي الفترة الرومانية تطورت الحياة الحضرية أكثر في إفريقيا وأخذت تتلون باللون الإيطالي منذ أن حلت جموع المهاجرين الإيطاليين بمعظم املدن المغاربية القديمة أواخر العهد الجمهوري وأثناء العهد الإمبراطوري الأول، إذ كان من الطبيعي أن يعمل الوافدون على تنظيم حياتهم على الطراز الإيطالي الذي ألفوه في روما. ثم ما لبثت الطبقة المتمدنة من الأهالي أن أخذت في تقليدهم لتعرف فيما بعد بالطبقة المترومنة. بينما حافظ سكان القرى والمناطق الجبلية البعيدة عن المدن على تقاليدهم النوميدية برفضهم لمختلف أشكال التمدن الروماني لأنها ترى في العناصر الرومانية صورتها الاستعمارية الاستغلالية أكثر منها حضارية ونذكر منها قبائل الجيتول الرافضة للحضارة الرومانية بكل صورها.

وعليه يكون حضر المدن الإفريقية قد نالوا حق المواطنة الرومانية منذ وقت مبكر خاصة أولئك الذي لم يبادلوا الرومان العداء، ومنهم ستكون نواة المجتمع الحضري الإفريقي يضاف إليهم العنصر الروماني صاحب السيادة وبنسبة أقل العناصر الوافدة من مختلف المقاطعات الرومانية الأخرى للتجارة أو العمل في الوظائف المدنية والعسكرية.

لذا فإن تصنيف فئات السكان في الفترة الرومانية كان حسب أنشطتهم الاقتصادية وبيئتهم الاجتماعية ومنزلتهم السياسية إلى أربعة أصناف هي الحضر، الريفيون، البدو، العبيد.

و في الأخير فإن تقسيم مختلف تلك التنظيمات إلى قبائل و مجموعات قبلية أي شعوب كان حسب نمط المعيشة إلى بدو رعاة متنقلون و حضر مزارعين مستقرين أو حسب المعطيات الجغرافية جبليون سكان الجبال و ريفيون سكان القرى و حرفيون أصحب المدن. وإما حسب الأصول محليون ووافدون مهاجرون. ما هي في الحقيقة إلا صورا مختلفة للمجتمع المغاربي القديم عبر فترات تاريخية مختلفة تجمع كلها في النهاية عل التسلسل التاريخي للهوية الحضارية له. لأن الهوية الثقافية هي اللحمة التاريخية و الروحية والفكرية التي بين مختلف أفراده الذين حافظوا على تقاليدهم وعاداتهم المشتركة دون الانصهار التام في حضارة الو افد سواء المهاجر أو المستعمر.